المحاضرة السادسة: الأدب والفلسفة

تمهيد:

اختلف النقاد والدّارسون في تحديد طبيعة العلاقة بين الأدب والفلسفة، هذا الخلاف الذي بدأ مع طرد أفلاطون للشعراء من جمهوريّته الفاضلة، خشية تشويه عالم المثل الذي شكّله بفكره وتصوّراته، ففي الوقت الذي قال فيه بعضهم أنّ الأدب يُعالج الأفكار وبالتّالي فهو شكل من أشكال الفلسفة، ذهب آخرون إلى أنّ الأدب لا يحمل في ذاته أيّ مغزى فلسفيّ، ذلك أنّ الأفكار التي يتضمّنها الأدب، غالبا ما تكون خاطئة وسطحيّة وأغلبها مطبوعة بالتكلّف والمغالاة.

1. الأدب شكلٌ من أشكال الفلسفة:

يقول **رينيه ويليك** في كتابه (نظرية الأدب): "ويُمكننا يقينًا أخذ الأدب باعتباره وثيقة في تاريخ الفكر والفلسفة، إذ أنّ تاريخ الأدب يتمشّى مع التّاريخ الفكري ويعكسه، وكثيرا ما تبيّن الأقوال الصريحة أو الإيماءات ولاء الشاعر لفلسفة بعينها، أو تثبت معرفته المباشرة لفلسفات كانت شائعة، أو إدراكه لفروضها العامّة"[1]، ذلك أنّ كثيرا من الأعمال الأدبيّة تعكس فلسفات متنوّعة أو أفكار فلسفيّة تحظى باهتمام الأديب وترسم توجّهه الفكري في أدبه.

ويضرب **رينيه ويليك** مثالا ببعض الشعراء الفلاسفة أو الذين يبدو تأثّرهم بالفكر الفلسفي في إبداعاتهم واضحا أمثال: **شكسبير، سبنسر، مونتاني، وميلتون** وغيرهم من الشعراء الإنجليز وغير الإنجليز الذين انعكس تاريخ الفلسفة في أشعارهم، حيث نجد أفكار **أفلاطون والرواقيون** وغيرهم، مبثوثة في بعض قصائدهم، يقول: "وقد كان **كولريدج** من بين الشعراء

[1]. رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، تر: محي الدين صبحي، ط02، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ص154.

الرومانتيكيين العِظام، فيلسوفا صنّاعًا ذا تطلّع عظيم وذا شأن يُذكر، وكان دارسا مُدقّقا لكانط Kant، وشلنج Schellig، باسطًا لآرائهم، وإن فاته التمحيص أحيانا، ورغم أنّ شعر **كولريدج**، لا يبدو أنّه قد تأثّر كثيرا بفكره الفلسفي، إلّا أنّ كثيرا من الأفكار الجرمانيّة أو الأفلاطونيّة الجديدة عامّة دخلت من خلاله، أو عاودت دخول التقليد الشعري الإنجليزي[1].

وهناك آثار من **كانط** في شعر **وردزورث** Wordsworh، كما ظهر انّه كان دارسا متعمّقا لأعمال عالم النفس **هارتلي** Hartly، وقد تأثّر **شيلّي** Shelly في بادئ الأمر بالفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر (الموسوعيين)، وتلميذهم الإنجليزي **جودوين** Godwin لكنّه عاد فاكتسب آراء من فكر **سبينوزا وباركلي و أفلاطون**.

2. الأدب لا يتقاطع مع الفلسفة:

يرى بعض المنظّرين أنّ الأدب والفلسفة لا يمكن أن يكونا وجهين لعملة واحدة، فالاختلاف قائم بينهما من جهة التاريخ والوظيفة والتأثير، يقول **علي أدهم**: حيث تختلف وظيفة الشاعر عن وظيفة الفيلسوف، فوظيفة الفيلسوف هي أن يتناول بالتحليل التيارات الفكريّة الغالبة على جيل من الأجيال والتي تُشكّل أفكار هذا الجيل وتقوم على أساسها ثقافته ومعرفته، ويقيس أبعادها ويسبر أغوارها، أمّا مجال الشعر فهو إظهار الجمال، فالتفسير الفلسفي للحياة غير التفسير الشعري، وقد بسط الفيلسوف الإيطالي **بينيدتو كروتشه** Benedetto Croce الفرق بين الفلسفة والشعر في هذه الكلمات القويّة:

[1]. يُنظر، المرجع نفسه، من ص140 إلى 154.

قبل أن يصل الإنسان إلى درجة تكوين الأفكار عن العالم، كوّن أفكارا خيالية، وقبل أن يفكّر تفكيرا واضحا، كان يفهم الأشياء فهما غائمًا مختلطا، وقبل أن يتكلّم ترنّم، ولم ينطق بالنّثر إلّا بعد أن عبّر بالشعر، وقبل أن ينحت الإصطلاحات استعمل المجازات، فالشعر ليس وسيلة لشرح الفلسفة وإنّما هو نقيض لها، فالفلسفة تحرّر الذهن من الحواس، أمّا الشعر فإنّه يعظم ويكمل بمقدار انحصاره في الخاص والمعين، والفلسفة تُضعف الخيال وتكبّله، والشعر يقوّيه ويُطلقه، والفلسفة تحذّرنا من استحالة العقل إلى جسم، والشعر يُطربه أن يُجسّم العقل، وأحكام الشعر مشتقّة من الحواس والعواطف، وأحكام الفلسفة قائمة على التفكير الذي لو تسرّب إلى الشعر جعله فاترا، ولم يعرف في سير التاريخ أحدا كان شاعرا كبيرا وفيلسوفا كبيرا معا[1].

3. قطيعة ام تكامُل بين الأدب والفلسفة:

يعتقد **رينييه ويلييك** في كتابه (نظرية الادب)، أنّه غالبا ما يكون التكامل بين الأدب والفلسفة خادعا، وتكون الحجج في الدّفاع عنه مُبالغا في قيمتها، لأنّها تكون مبنيّة على إيديولوجيات أدبيّة وإعلانات بالنّوايا وبرامج تأخذ بالضرورة من التكوينات الجماليّة القائمة وبالتالي تكون علاقتها بعيدة بالممارسة الفعليّة للفنّانين، وهذا التشكّك في التكامل الوثيق بين الفلسفة والأدب لا ينفي بالطّبع وجود علاقات كثيرة، بل ربّما وجود توازٍ تدعمه الخلفيّة الاجتماعيّة العامّة للعصر، ومن ثمّ تدعمه المؤثّرات المشتركة على الأدب والفلسفة.

[1]. علي أدهم، بين الفلسفة والأدب، دط، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1978، ص16/15.